القسم الأول(ديني)

الفصل الأول:الجنون.

منطلقات عقلية وحضارية لفكرة الجنون.

obeikandl.com

طلالة:

الحديث عن الجنون في علاقته بالرسول الخاتم قد يشي بالكثير من المغالطات، وقد يضطرب فيه القول كثيراً، والحق إن الحديث عن الجنون هو حديث متجدد، ولعلي أؤمن كثيرا بأن العقبة الكبيرة التي تواجه كل صاحب دعوة هي إثبات النية الخالصة لوجه الله تعالى، دون أن يكون هناك سبب آخر (دنيوي/مادي) لمثل تلك الدعوات، أو تكون متأثرة بالمخابرات الخارجية(البريطانية مثلاً) فقد عُرف في التاريخ الحديث وجود بعض مدعي النبوات في الهند وما إليها وكان هؤلاء مجرد أبواق للأيدي الخارجية التي تريد أن تفسد على الناس معتقداتهم، وقد كان لمصر في الثلث الأول من القرن العشرين نصيباً وافراً من هذا الركام الحضاري، ولما ينته بعد، بل تطاول حتى صار كالهالوك في الحقول، وكلٌ يدعي للناس أن حياته لله، بيد أنها للسلطان والكرسي، ويبدو أن هناك بجانب المجموعات السابقة التي ذكرناها في أوجه المعبودات عبادة جديدة جدّت في عالمنا الإسلامي وهي: عبادة السلطة، وللزي المُتعبد إليه أطر خارجية زائفة كالتزيي بالدين أو إصلاح الفاسد.

وسأتحدث في هذا الفصل عن الجنون في اللغة، والجنون كما رواه القرآن، وما يمكن أن نفهمه من ظاهر الآيات، وما عمد إليه المفسرون (الكبار) في العالم الإسلامي، وما مدى تشبع الرسول بهذه الاتهامات، وسنمر مرورًا سريعاً على الكثير من المواقف التي يبدو فيها المُصلحُ مجنوناً، والمخربُ مصلحاً وفق الأهواء الشيع.

أولاً: الجنون في اللغة:

يأتي معنى الجنون في اللغة العربية بمعنى الستر والإخفاء، قال ابن منظور في لسان العرب:" جنن: جَنَّ الشيءَ يَجُنُّه: سَتَرَه.وكل شيء سُتر عنك فقد جُنَّ عنك. وجَنَّه الليل يَجُنُّه جَنَاً وجُنوناً وجَنَّ عليه يَجُنّ ، بالضم، جُنوناً وأَجَنَّه: ستَّره، قال ابن بري: شاهد جَنَّه قول الهذلي:

وماء وردت عللاً جفنه   وقد جنّه السدف الأدهم

وفي الحديث جنّ عليه الليل أي ستره، وبه سُمي الجنُّ لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار، وجِنُّ

الليل وجُنُونُه وجَنَانهُ: شدة ظلمته وادلهمامه، وقيل: اختلاط ظلامه لأن ذلك كله ساتر"([1]) .

وقد ذكر ابن منظور عدة معانٍ قريبة من ذلك المعنى ومنها: "والجَنَنُ: بالفتح هو القبر لستره الميت، والجنن أيضاً هو الكفن.

والجنين: المقبور.

والجنانُ: القلب لاستتاره في الصدر. وقيل لوعيه الأشياء وجمعه لها.

الجنين: الولد مادام في بطن أمه لاستتاره فيه.

والجِنُّ: ولد الجان وقال ابن سِيده: الجنُّ نوع من العالم سموا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار؛ ولأنهم استجنوا من الناس فلا يُرون، والجمع جنان، وهم الجِنُّة.

الجِنُّ: خلاف الإنس، والواحد جني، سُميت بذلك لأنها تخفى ولا تُرى. جُنَّ الرجل جُنوناً وأجنَّه الله، فهو مجنون، ولا تقل مُجِنٌّ .

الجنون هو: نقصان العقل.

الجان: أبو الجن.

وفي الحديث: " لو أصاب ابن آدم في كل شيء جُنّ" أي أُعجب بنفسه حتى يصير كالمجنون من شدة إعجابه.

وفي الحديث: اللهم إني أعوذ بك من جنون العمل. " أي من الإعجاب به، ويؤكد هذا حديثه الآخر، أنه رأى قوماً مجتمعين على إنسان فقال: ما هذا؟ فقالوا: مجنون. قال: هذا مصاب، إنما الجنون الذي يضرب بمنكبيه وينظر في عطفيه ويتمطى في مشيته.

الجان: نوع من الحيات (تهتز كأنها جان)

وهو: الشيطان أيضاً."([2])

وهكذا يبدو أن مصطلح الجنون في اللغة العربية(في جميع المظان اللغوية) يدور حول الاستتار، سواء استتار مادي للجثة كالجنين في بطن أمه، أو الجن المستترون عن الرؤية، والمعنوي مثل: استتار العقل وذهابه عن الإنسان، وخلاف ذلك.

ثانياً: الجنون في القرآن الكريم:

تواترت الأقوام في تكذيبهم للرسل، ووُصِفَ نوحٌ وموسى ومحمدٌ(ص) بالجنون، وكان إلصاق تلك التهم بالأنبياء من باب التعريض بهم، والتحقير من شأنهم وربما التهوين من دعوتهم، والذهاب

١-ابن منظور: لسان العرب، دار الحديث، ٢٠٠٦، جـ٢، صـ ٢٣٢-٢٣٦.وقد ذكر قريب من هذا الراغب الأصفهاني في مفرداته :" الجنون حائل بين النفس والعقل ،وجّنّ فلان قيل أصابه الجنُ" الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، المكتبة التوفيقية ، ٢٠٠٣م، صـ١٠٦.

٢- ابن منظور : لسان العرب، صـ٢٣٦.

بأنهم بمخالفتهم لما وجدوا عليه القوم قد خرجوا عن السياق المعقول، ومن ثمَّ فقد خالطهم الجن أو ذهب عقلهم وبقيت لهم التخاريف.

ومن المدهش أننا من خلال بحثنا في القرآن وجدنا أن القرآن قد ذكر ثلاثة من الأنبياء فحسب وصفوا بالجنون وهم: نوح، وموسى، ومحمد عليهم السلام.

وقد ذُكر الجنون ملتصقاً بنوح في مرة واحدة حين قال تعالى: " كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ "(القمر:٩)

ولا تقف كتب التفسير كثيرا أمام هذا الاتهام بالجنون، بل يحملونه على مثيله، كما حكى القرآن عن اتهام الكفار للرسول بالجنون، وعلقوا على قوله "ازدجر " واختلفوا في القراءات والمعنى المقصود من تلك الكلمة.

ويبدو لي أن هذا الاتهام لم يكن على حقيقته بالنسبة لنوح فقد قالوا له جادين: " قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنْ الْمَرْجُومِينَ" (الشعراء:١١٦) وهنا أقول إن نوحاً لم يفتضح بينهم بالجنون، وإنما خرج على مألوفهم، وتحداهم وأخبرهم بأن مصيرهم الحريق، فكان هذا يؤذي أسماعهم فقالوا له: عليك أن تنته وإلا رجمناك، أي قتلناك وتخلصنا منك رحمة بأنفسنا.

ولعل هذه الآية وسواها مما سيليها في ذات الاتجاه يصب في خدمة قوله تعالى في موضع آخر:" مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ"(فصلت :٤٣)
المتتبع لقصة موسى في القرآن يجد أنه أكثر الأنبياء ذكراً في السابقين على محمدٍ(ص) وقد راح القرآن يحيط الرسول وأمته علماً بكل أخباره، من قبل أن يولد وحين وُلدَ وكيف تربى، ثم مرحلة الشباب والفتوة والعصبية المزاجية والطبيعة الحادة له([١]) وقد جاء في خضم الحديث عن موسى شخصيات أخرى كثيرة وهي: (أم موسى - هارون – فرعون – قارون – هامان – امرأة فرعون – مؤمن آل فرعون – بنو إسرائيل – السامري – الخضر عليه السلام – يوشع بن نون (فتى موسى) – شعيب وبناته – مصر – مدين – السحرة – العصا- البحر – بقرة بني إسرائيل ([٢]) الخ) مما يؤكد أنه كان أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم، وأسباب ذلك متعددة، وسيأتي الحديث عن تدرج القرآن

١- انظر سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، ويقول سيد قطب عن موسى عليه السلام:" وهذه الارتعاشة العنيفة ، وقبلها الاندفاع العنيف ، تصور لنا شخصية موسى – عليه السلام – شخصية انفعالية ، حارة الوجدان ، قوية الاندفاع، وسنلتقي بهذه السمة البارزة في هذه الشخصية في مواضع أخرى كثيرة." في ظلال القرآن ، دار الشروق ط٣٧، ٢٠٠٨، مجـ٥، صـ ٢٦٨٢.
٢-انظر بحثنا : جماليات السرد في قصة بقرة بني إسرائيل : مقاربة سيميائية (مجلة كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ ، ٢٠١١م.صـ ٢١٢-٢٩٢) وقد استقصينا هناك حديث القرآن عن بني إسرائيل ، بتفصيل شديد.

obeikandi.com

في الحديث عن بني إسرائيل ثم أهل الكتاب، ثم اليهود، والنصارى، وأن هذا التدرج في الوحي جاء مواكباً للتطورات السياسية في العلاقة بين محمدٍ(ص) وبين يهود يثرب.

وقد ورد أن فرعون اتهم موسى بالجنون مرتين في القرآن الكريم، ولم يركز القرآن مطلقا على هذا الاتهام، لا لمجرد نفيه وعدم أهميته بالنسبة لموسى – عليه السلام – ودعوته، وإنما لكون فرعون يعرف السحر والسحرة ويدرك المعاني الخفية للجنون، وقد يكون المخادع أكثر الناس معرفة بالطريق الصحيح، كما أن المنافق أكثر العارفين بطرق الصدق وهكذا.

قال فرعون :"قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ "(الشعراء:٢٧) وقطعاً هذه السورة من القرآن المكي ، الذي يحكي عن بني إسرائيل في الشق الإيجابي لدعوة موسى عليه السلام، وسورة الشعراء تتميز – كالقرآن المكي – بقصر الآيات وتنوع الموضوعات والانتقال من موضوع لآخر بشكلٍ واضحٍ وملفتٍ للأنظار مما يشي بدراسات بلاغية عظيمة في تلك السورة. والآية الأخرى قوله تعالى حاكياً عن فرعون :" فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَو مَجْنُونٌ "(الذاريات:٣٩)

وتحليلنا لظاهر الآيتين يقول: إن فرعون يخاطب بني إسرائيل ويقول لهم: إن رسولكم أنتم، ولا علاقة لي به، من باب القومية والإثنية العرقية (سيأتي الحديث عن وراثة النبوة) ليس كبقية الرسل السابقين، فقد جاء إبراهيم إلى مصر وكان نبياً، ولكنه لم يخرج عن الحكمة والوقار ولم يدع - في مصر- الملك للإيمان أو الإسلام، فكان أن أهداه الملك جارية وبعض المال، فأخذ الجارية – خادمة لزوجه سارة - ثم أنجبت له ولداً، ورغم أنني قد أعترف – بسبب الآيات – بأن موسى نبي، فإني أظنه مجنوناً، لخروجه عن مألوف الدعوات، فما أنا – فرعون – من قومه حتى يدعوني بدعوته تلك، ومن ثمّ أراه مجنوناً.

والآية التي قبلها تقول: " قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ "(الشعراء: ٢٦) يقول الطاهر بن عاشور: " احتد فرعون لما ذكر موسى ما يشمل آباءه المقدسين بذكرٍ يُخرِجهم من صفة الألوهية زاعماً أن هذا يخالف العقل بالضرورة(١)، فلا يصدر إلا من مختل الإدراك، وأنه رأى أن الاستدلال بخالقيتهم وخالقية آبائهم عبث لأن فرعون وملأه يرون تكوين الآدمي بالتولد وهم لا يحسبون التكوين الدال على الخالقية إلا التكوين بالطفرة دون التدرج بناء على أن الأشياء المعتادة لا تنفطن إلى دقائقها

١- تؤكد الدراسات الحديثة أن الناس حين تعتاد على شيء باطل أو في صورة باطلة تقاوم غيره وإن كان صحيحاً وترده إلى الخبل العقلي ، والاضطراب الفكري ، وترده في النهاية إلى الجنون ،وهذا ما كان يصدهم في بداية دعوة كل نبي ، حتى يبدأوا في نقد الماضي وإرثهم نقداً عقلياً سليماً ، ولكن هناك على الدوام من تكون مصلحته في إلغاء عملية النقد العقلي للإرث الثقافي والرغبة تكون جامحة في استمرار الجمود الفكري، والتوقف الحضاري لحساب فئة معينة ، وقد تدعي تلك الفئة أنها تتحدث باسم الدين مثل الجماعات التنظيمية في مصر.

العقول الساذجة ..."[1] ويضيف الإمام بن عاشور: " وأكد كلامه بحرفي التأكيد لأن حالة موسى لا تؤذن بجنونه فكان وصفه بالجنون معرضاً للشك؛ لذلك أكد فرعون أنه مجنون يعني أنه علم من حال موسى ما عسى أن لا يعلمه السامعون."[2]

وهكذا جاء اتهام موسى – عليه السلام – أنه مجنون من قِبل المتوجَه إليه موسى بالدعوة مصداقاً لقوله تعالى: " اِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى "(طه:٢٤) فالحال مع نوح كما كان مع موسى ، فقوم نوح يتهمونه بالجنون، وفرعون يتهم موسى بالجنون، وموسى قد صدم فرعون في آبائه، ونعلم من الكتب التاريخية التي تؤرخ لمصر القديمة (الدولة القديمة – الدولة الوسطى – الدولة الحديثة) أن الفراعنة كانوا يُقدِّسون الآباء لدرجة العبادة في الكثير من الأحيان، [3] ويوجه القرطبي إلى هذه الآية توجهاً يسيرًا، ويقلل من التأليف فيها ويكتفي بإشارة يسيرة ويرى أن فرعون قال ذلك لأن موسى لا يجيبه عما يسأله عنه. [4]

من خلال الحديث عن اتهام نوح وموسى بالجنون نجد أن أغلب المفسرين لم يتوقفوا عند اللفظ أو المعنى إلا في سياق النص وتتالي الآيات، وهي آيات حوارية تكرر مثلها في سورة طه، وبهذا نرى أن المقصود بالجنون هنا خلل عقلي أو اضطراب عقلي يحول بين المرء ودواعي العقل والتعقل للتصرفات والأقوال.

فهل للجنون معانٍ أخرى، ووجهات خاصة تُضاف إلى هذا التوجه، جاءت في آيات القرآن الكريم؟
الجواب: نعم.
قال الله تعالى عن حاكياً عن العرب الذين وجهوا كل اتهاماتهم للرسول في بدء الدعوة – في بدء الدعوة فقط- اتهامات مشهورة وهي:
-الجنون.
-الكهانة.
-الشعر.
-السحر.

١-الإمام محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مجـ٨، جـ١٩، صـ ١١٩.

٢-المصدر السابق، صـ ١١٩.
٣- انظر في ذلك العلامة : سليم حسن ، موسوعة مصر القديمة التي قامت طباعة الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) ونجد أن المؤلهين من الفراعين نوعين: نوع كان يُعبد في حياته ، ونوع آخر كان يُعبد عقب وفاته ، وفي تاريخ هؤلاء القوم ما لا يصدقه عقل ، وما يندهش له العقل ،ويكفي أن نذكر أن التحنيط كان قاصرا على الملوك والأمراء فحسب، وقد ذكر أحد العلماء قائلاً: إن تحنيط جثة واحدة يتكلف ما قيمته اليوم مليون دولار أمريكي ، فمن ذا يُحنط إلا الحكام؟ وهناك كلام طويل حول تسخير الفراعنة للجن بدرجات عالية وكتب في ذلك أنيس منصور كثيرا : الذين هبطوا من السماء، والذين عادوا إلى السماء.وغيرها من الكتب.وأغلب الظن أن هذا كله قد بطُل لما دعا سليمان – عليه السلام – ربه قائلاً:" قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ "(ص:٣٥) والجدل حول هذا الأمر يشمل تدخلات من جهات كثيرة منها علماء الآثار الغربيين المنقبين عن الآثار الفرعونية في مصر ، وعلماء الدين والصهيونية وعلماء اليهود خاصة وغيرهم.
٤-القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ، مجـ٧، صـ ٩٣.

وقد جاء في القرآن الجمع بين بعض تلك التهم، وأقول تهماً ولا أقول أوصافاً؛ فالوصف سمة لازمة للشخص، لا يخرج عنها أو منها ببساطة، وقد كان محمد(ص) معروفاً فيهم، وليس غريباً عنهم، وهم قوم يتفاخرون بالأنساب ويحفظونها، ولمحمد خاصة قصص مشهورة بينهم فهو:

أولاً:

حفيد عبد المطلب الذي نذر لله نذرًا بذبح أحد أبنائه إن بلغوا عشرًا من الذكور لما غلبته قريش عند حفر زمزم([1]) ولما قرع بين الأبناء كانت القرعة تختار عبد الله الابن الأقرب للأب ولبقية الإخوة (خلافًا لإخوة يوسف)، ثم وقفوا ضد تحقيق فعل الذبح، وافتدى عبدُ المطلب عبدَ الله بمائة ناقة ورُفِعَ قدر الرجل في قريش من عشر نوق فقط إلى مائة ناقة بهذا الحدث، ثم إن عبد الله تزوج من بعدها وأنجب ولداً واحدًا وقبيل ولادته مات عند ديار أنسبائه في بني النجار.

ولما وُلد محمد تربى في بني سعد، ورعاه جده حتى مات ثم رعاه عمه أبو طالب، حتى صار قادراً على العمل، ثم التمسّ له العمل في تجارة السيدة خديجة، حتى آنست منه أشياء كثيرة وأشبع فيها حاجات متعددة وتفرست في مستقبل أيامها معه، فرغبت فيه وإن رغمت أنوف بني خويلد كلهم أجمعين([2])، ثم هو الصادق الأمين، ثم هو من حكم بين القبائل في القول المشهور عندما تهدمت الكعبة والتمسوا بناءها بحطام سفينة كانت قرب شواطئ جدة، واختلفوا عند وضع الحجر الأسود، فالتمس لهم حلاً أرضاهم وحقن الدماء بينهم، ثم هو الرجل الوادع الذي لا يكثر ذكره، فلم يكن من أغنيائهم ولم يكن من الندماء، ولا من أعضاء دار الندوة، ولا يؤخذ رأيه في حرب أو سلم، وكان اشتراكه في الحلف المشهور(الفضول - في دار عبدالله بن جدعان) اشتراك الفرد يشترك مع قومه، ولم يكن يبز أحدًا منهم سوى في الصدق والأمانة وبُعده عن المعازف والمغاني واللهو كما حكى عن نفسه، فهو لم يتكهن، ولم يجلس إلى معلم - ولم يكونوا يجلسون - ولم يقل الشعر أبدا([3])، وما اهتم بالسحر ولا بالسحرة ولا يعرفهم، ولا يفهم معاني كلماتهم ولا اشتهر بشيء يعرفون منه انتقاص قدره أو انحطاط مكانته، وكان لما كثرت أبناؤه في البيت ولم يعد يجد الخلوة التي يرجوها للتأمل - ربما كما الحنيفيين في عصره - أراد أن يخلو بنفسه في غار حراء بالليالي ذوات العدد.

١- ابن هشام :السيرة النبوية ،المكتبة القيمة ،، جـ١، صـ٨٣ ،وما بعدها.

٢- انظر بحثنا عن خديجة في كتابنا : تأملات حول نساء الحياة ، مبحث السيدة خديجة، مركز الحضارة للنشر بالقاهرة ، ٢٠١٠، صـ ١١٦- ١٥٣.

٣- ولم يقل الشعر ليس معناه أنه لم ينظمه ، بل لم يروه مطلقاً ، ولما روى مرة روى خطأ ، أو عكس البيت الشعري فنبهه أبو بكر ، ثم علم أبو بكر قول الله تعالى :" وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِيْنٌ" (٦٩) وإنما كان الرسول يستمع للشعر ويثيب قائليه، وله شعراء :حسان بن ثابت وكعب بن مالك ،وعبد الله بن رواحة وغيرهما، وكان يغضب من قول الشعر على لسان اليهود تشبيباً به وبنساء المؤمنين ، وكان يجازي الشعراء ويعطف عليهم ويعفو عن المخطئين بالمدائح النبوية كما كان من كعب بن زهير بن أبي سلمى في قصيدته الشهيرة بانت سعاد التي يقول فيها:

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسولِ الله مأمول

ويقول : وكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول الخ. يقول د.سامي العاني:" وعرف الشعراء ما للشعر من تأثير في نفس الرسول(ص) وقلبه ، فاتخذوا منه وسيلة يستشفعون بها عنده، وكان يستجيب لهم ، فينصر مستنصرهم ويغيث مستغيثهم ، ويقبل من معتذرهم ، ويرق لمتألمهم."د.سامي مكي العاني: الإسلام والشعر ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، ١٩٨٣م، ع٦٦، ٦٤. وقد استقصى في هذا الكتاب الجيد موقف الإسلام من الشعر ، وقيمة الشعر ويقول في هذا:" والعرب تنشد الشعر للغناء بمكارم أخلاقها ،وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأماجد ، وسمحائها الأجواد لتهزّ نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حُسن الشيم.

ولولا خلال سنَّها الشعر ما درى بغاة الندى من أين تؤتى المكارم (البيت لأبي تمام)

فكان يتزود لها ، ونحن في عصرنا الراهن لا نعوِّل كثيرا على بعض الروايات التي تدعي خروقات للسيرة المحمدية في تلك الليالي في غار حراء، فقد كشفنا من قبل – ومازلنا نؤكد – أن أحداً مهما طالت استقامته أو كثرت عبادته لا يُتوّج بالنبوة مقابل عمله، بل الله تعالى يصطفي من خلقه من يشاء كما قال (آل عمران :٣٣) فالله اختار محمداً(ص) والله لا يُسال عما يفعل وهم يسألون.

من خلال هذا التمهيد يتضح لنا بجلاء – كما تروي الكتب – أن الرسول(ص) لم يكن معروفاً عنه السحر والكهانة والمجون ورواية الشعر([١])، ولم يكن من العِلية الذي يحضر مجالسهم ولم يكن عضواً في دار الندوة ولم يصادق الكبراء والعظماء فيهم، ولكنه على النقيض أو بالتوازي مع ذلك لم يكن مجهولاً أو معدوم الهوية، بل هو الصادق الأمين، ذو الخلق القويم، والرجل الرشيد، وكان أصدقاؤه على شاكلته من العفاف والبعد عن اللهو والفساد.([٢])

فلِمَ رموه بتهمة الجنون وهي لا تصلح لمثله؟

يوضح لنا قوله تعالى: "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَو مَجْنُونٌ"(الذاريات:٥٢) إن هذا الوصف وتلك التهم منتشرة في الأمم ، وإن لم تكن مشتهرة عن الأنبياء؛ لأنها تُقال عنهم في بداية الدعوة (وهي تُقال لهم أكثر مما تُقال عنهم)، ثم تندثر بعد ذلك، ومن هنا فإنها لا تُقال على مدار الأيام، فلم يعُد من قوم نوح أحد حتى يسبه بالجنون(أقصد الكافرين)، وكذا أغرق الله فرعون القائل إن موسى مجنون وساحر، وقد أكثر فرعون من وصف موسى بالسحر ونرى ذلك في آيات كثيرة.([٣])

من خلال مطالعاتنا في المصحف الشريف المرتب بترتيب عثمان بن عفان والمتواتر حالياً بين أهل السنة، نجد أن جميع السور التي تحدثت عن إلصاق تهمة الجنون أو السحر أو الكهانة أو الشعر أو دفعها عن النبي سورًا مكية فقط، وجاء ترتيبها في المصحف كالآتي:

١- سورة الأعراف وهي رقم ٧ والآية التي ذُكر فيها الجنون رقم ١٨٤، يقول الله تعالى فيها : "أَوَ لَمْ

١-الجن كان يلتصق ببعض الشعراء ، ويقال إن لكل شاعر شيطاناً ، فهو يملي عليه ، ويقال إن تركز تلك الجن في وادي يقال له وادي عبقر، ومن هنا فقد يكون المقصود في بعض المناحي بالجن أن يكون شاعراً وله جن يوحي إليه بهذا الكلام.

٢- انظر : محمد فريد وجدي : السيرة النبوية تحت ضوء الفلسفة والعلم ، الأسرة، ١٩٩٩م،صـ٨٦-٨٧، حيث ذهب إلى ما يأتي:" لم يشتهر محمد بن عبد الله قبل مبعثه ، ما عدا الاستقامة الخلقية ، بشيء من المميزات اللسانية والثقافية ، فلم يكن بالشاعر الذي يرنن أوتار القلوب ، ولا بالخطيب الذي يختلب أهواء النفوس ، ولا بالعالم الذي يستهوي شهوات العقول ، ولا بالفارس الذي يلجأ إليه في حماية الحوزة إذا جدّ الجد في حرب زَبون، ولم يُعرف بشيء مما كان العرب يعولون عليه في منازعاتهم ومكاثراتهم ومماتناتهم(مباراتهم ومغالباتهم) ومنافراتهم ، فلم يعيَّن مرة ، بعد تشاور قاضياً في نزاع ، ولا فيصلاً في خلاف ، ولا مرجعاً في مجهول ، ولا حكماً في منافرة. ثم يستطرد قائلاً:" لم يظهر على محمد بن عبد الله ما يدل على ما سيؤل إليه غير ميل كان فيه إلى السكينة والتفكير ، وكلما تقدمت به السن ازدادت حاجته إليهما حتى تأدى به ذلك إلى تمضية أيام بلياليها في غار بقرب مكة يقال له حراء ، فكان يمضي فيه تارة ثلاثة أيام وتارة سبعة وتارة تسعة وتارة شهرا ، يمكث فيه وحده متفكرا متدبرا.

هذه هي الصفة التي ميزت محمد بن عبد الله عن غيره من أهل جيله ، وهي صفة لا يجوز أن تغفل أو أن يمر بها مرا؛لأنها مظهر ما استتر في سويداء نفسيته من النزوع إلى أفق الروح ، والاتصال بعالم الملأ الأعلى ، وما لازمت هذه الصفة نفساً بشرية إلا وجهتها هذا التوجيه الروحي على قدر ما فيها من قوة".

٣- انظر الآيات (الأعراف :١٠٩) (الأعراف :١١٢) (يونس:٧٧)(يونس :٧٩) (طه:٦٣) (طه :٦٩) (الشعراء:٣٤) (غافر:٢٤)(الزخرف:٤٩) (الذاريات ٣٩)

يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ".

٢- وفي سورة يونس وهي السورة رقم ١٠، في الآية رقم ٢ يقول تعالى عن السحر:" أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الكافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ".

٣- والسورة التالية هي سورة الحجر، وهي رقم ١٥ في ترتيب المصحف والآية التي ذُكر فيها الجنون آية رقم ٦، يقول الله فيها:"وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ".

٤- ثم سورة الأنبياء ، وهي رقم ٢١ في الترتيب المصحفي، وذُكر فيها الحديث عن الشعر في الآية رقم ٥، والتي يقول فيها تبارك وتعالى:" بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ".(الأنبياء:٥)

٥- سورة المؤمنون وهي تحمل رقم ٢٣ في ترتيب المصحف ،وقد جاء ذكر الجنون فيها في آيتين هما ٧٠/٢٥، وفي الأولى يقول تعالى:" إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ".وقد نزلت تلك في نوح – عليه السلام - والآية الأخرى يقول فيها الله تعالى:" أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ".وتلك نزلت في محمد(ص).

٦- ثم سورة سبأ، وترتيبها في المصحف رقم ٣٤، وقد ذكر الجنون فيها في آيتين، رقمي: ٤٦/٨، يقول الله تعالى في الآية رقم ٨:" أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي العَذَابِ وَالضَّلالِ البَعِيدِ". ويقول تعالى في الآية رقم ٤٦: "قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ".

٧- ثم سورة الصافات وهي تحمل ترتيب رقم ٣٧، والآية التي ذُكر فيها الجنون رقم ٣٦، ويقول الله تعالى فيها: " وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ".

٨- ثم سورة ص، رقم ٣٨ في الترتيب، وفي الآية رقم ٤ يتحدث الله تعالى عن السحر فيقول: " وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ".

٩- ثم سورة الدخان، وهي تحمل ترتيب رقم ٤٤، والآية التي تتحدث عن الجنون رقم ١٤، وفيها يقول تعالى: " ثُمَّ تَوَلَّوا عَنْهُ وقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ".

- ثم سورة الذاريات وهي تحمل ترتيب رقم٥١، وقد جاء ذكر الجنون في آيتي رقم ٥٢/٣٩، أما الآية رقم ٣٩ ففيها: " فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَو مَجْنُونٌ".(في موسى) وأما الآية ٥٢ ففيها: " كذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهُمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَو مَجْنُونٌ .

١١- ثم سورة الطور ورقمها في ترتيب المصحف ٥٢، وجاء ذكر الجنون في آيتين هما: ٣٠/٢٩، وفيهما يقول تعالى: " فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ".

١٢- ثم سورة القلم ورقمها في ترتيب المصحف ٦٨، وقد ذكر الجنون فيها في آيتين هما: ٥١/٢، يقول تعالى في الآية رقم ٢: " مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ " ويقول في الآية رقم ٦٨: " وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّه لَمَجْنُونٌ".

١٣- ثم سورة الحاقة وهي رقم ٦٩ في تريب المصحف، وذكر فيها الحديث عن الشعر في الآية رقم ٤١، والتي جاء فيها: " وَمَا هُوَ بِقَولِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ". ويقول في الآية رقم ٤٢: " وَلا بِقَولِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَّا تَذَكَّرُونَ".

١٤- ثم أخيرا سورة التكوير وترتيبها في المصحف ٨١، والآية التي ذُكر فيها الجنون رقم ٢٢، ويقول تعالى فيها:" وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ".

تحليل تلك الآيات:

أولاً: نجد أن كافة تلك الآيات جاءت في سور مكية بلا خلاف، وهذا يدلنا على أن مجرد الاتهام (الزعم) كان في المرحلة المكية الأولى، فقط، ولم يكن من الممكن أن تظل تلك الاتهامات تلاحق النبي (ص) بعد أن أسس ما يشبه الدولة ووضع عهودا ومواثيق ومعاهدات، وقد جعل المسلمين أمة وحدهم وجعل الإخوة فيما بينهم إخوة الإسلام بمؤاخاته بين الأنصار والمهاجرين، وتسييره للسرايا في مختلف الأرجاء حتى فتح الله عليهم مكة، وطهرها من (الأوثان والأصنام) الآلهة التي كان يعبدها الوثنيون من قريش.

ثانياً: وردت كلة " مجنون" في تلك الآيات ٩ مرات، ووردت كلمة " جِنة" خمس مرات. كما وردت كلمة شاعر أربع مرات[١]، ووردت كلمة ساحر مرتين أيضًا، ووردت كلمة كاهن مرتين فقط.

ونجد أن التركيز على الجنون له دلالات تتبدى من ظاهر النص سنتوقف عن الخوض فيها، حتى نطوف في بعض أمهات التفسير حول دلالة كلمة الجنون التي وردت كثيرا.

ونبدأ بالطبري حيث يرى :" أن الجنون الذي حكوه عنه لكونه يطلب منهم أن يتركوا ما يعبد آباؤهم، ليتبعوه " [٢] ولم يتحدث كثيرًا عن الجنون ولا تعرض لوصفه وكنهه وما يكون.

ثم نجد الإمام القرطبي يقول: عن وصفهم للنبي (ص) بالجنون:" أن كفار قريش قالوه على جهة الاستهزاء"[٣] ولم يزد في شرحه في بقية الآيات التي فيها ذكر الجنون ملصوقاً بمحمدٍ(ص) عن أن وضح بعض أسماء من وصفه بها كقوله :" إن عقبة بن أبي معيط وصفه بالجنون، ووصفه شيبة بن ربيعة بالسحر ووصفه غيرهما بالكهانة فرد الله عليهم بأنه لا كاهن ولا مجنون.

ويقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور في معنى مجنون:" أرادوا الاستهزاء بوصفه فأنطقهم الله بالحق فيه صرفاً لألسنتهم عن الشتم ،وهذا كما كانوا إذا شتموا النبي(ص) أو هجوه يدعونه مذمما؛ فقال النبي(ص) لعائشة:" ألم تريّ كيف صرف الله عني أذى المشركين وسبهم؛ يسبون مذمماً وأنا محمد"[٤] وهكذا يسير في نظرته لاتهامهم للرسول بالجنون على هذا المنوال، وحكاه قوم من قريش ليصرفوا الناس وخاصة العامة عن سماع الرسول، فمدام مجنوناً، فمجرد الاقتراب منه يُعد تهمة.

ونرى أن أغلب التفاسير سارت على ذات المنوال حتى سيد قطب يقول في نظرته لقولهم " مجنون":" أنهم بدأوا سوء الأدب في وصفهم للرسول "إنك لمجنون" جزاء على دعوته لهم بالقرآن المبين"[٥].

ويذكر في تفسيره لسورة القلم قوله:" لم تكن هذه إلا واحدة من السخريات الكثيرة، التي حكاها القرآن في السور الأخرى؛ والتي كانت توجه إلى شخصه (ص) وإلى الذين آمنوا معه، وغير الأذى الذي كان يصيب الكثيرين منهم على أيدي أقربائهم الأقربين.

١- ورد في سورة يس الحديث عن نفي تعلمه الشعر حيث قال تعالى:" وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِيْنٌ"(يس:٦٩)
٢- محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مجـ٤، صـ٢١٥.
٣- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مجـ٥، جـ١٤، صـ ٣٦٨.
٤- الإمام ابن عاشور: التحرير والتنوير، مجـ٦، جـ١٤، صـ ١٦.
٥-سيد قطب:في ظلال القرآن، مجـ٤، جـ١٤، صـ ٢١٢٧.

obeikandl.com

تحكي أغلب الكتب التي تؤرخ للسيرة النبوية أنه[١]:"اجتمع قادة قريش وتشاوروا فيما يعملون. فأشار عليهم عتبة بن ربيعة العبشمي وكان سيدًا مطاعاً، بأن يذهب إلى محمد فيعرض عليه أموراً لعله يقبلها ويقلع عما هو ماضٍ فيه، فقبلوا رأيه، فذهب إلى النبي فصادفه يصلي، فلما أتم صلاته فاتحه الحديث قائلاً: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت، من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم، وكفّرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال النبي: قل يا أبا الوليد أسمع.
فقال له أبو الوليد: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً(مالهم به ربا فلن يقبله) وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك(ما زال الأمر لهم وهو مستشار) وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا (تدرج واستدراج، يمكن تنصيبه ثم خلعه) وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيٌّ من الجن لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى. (هنا اعتراف منه بمرضه وفي هذا هلاكه واستباحة دمه)[٢]
فقال له النبي: لقد فرغت يا أبا الوليد ؟
قال: نعم.
فقال النبي فاسمع مني:
وقرأ من أول سورة فصلت حتى قوله تعالى:" إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ومِن خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالَوا لَو شَاءَ رَبُّنَا لأنْزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ "
لما انتهى النبي إلى هذا الحد، أمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن قراءته.

فلما رجع عتبة إلى قريش قال لهم: والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر. يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه؛ فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم!

١- في كل الأحوال لن نعرض الحوار كاملاً، فقد فتحه عتبة(وقيل إنه الوليد ولعل كلٌ قد حاور النبي في هذا الأمر) بسؤال النبي(ص) عن أيهما أفضل دينه أم دين عبد المطلب وعبد مناف.. الخ ؛ ليعجزه، غير أن الرسول لم يجب ، وركز الحوار فيما أتى من أجله عتبة بحثاً عن حلول واقعية آنية ولحرصه على إسلامهم، أما الماضون فقد مضوا ولا يملك لهم الرسول شيئاً ، حتى الدعاء مُنع منه، كما سيأتي.

٢- يروي ابن كثير هذا الحدث ويضيف إليه أن عتبة قال له :" وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً."ابن كثير :البداية والنهاية ، (٦٧/٣) وكذا رواه الدكتور على محمد الصلابي، في السيرة النبوية صـ ١٦٦.

ويضيف ابن هشام في السيرة أن الرسول رد عليه بغير القرآن وقال أيضاً ربما في موقف آخر:" ما بي ما تقولون ،ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ،ولا الشرف فيكم ،ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ،وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيرًا فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم ،فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم."ابن هشام(٢٩٥/١-٢٩٦)

obeikandi.com

فقالوا له: لقد سحرك محمد.
فقال لهم: هذا رأيي، وتركهم وشأنهم."

نخلص من هذا الحوار بما يأتي:

أولاً: لم يكن في أغراض قريش أية رغبة في الهداية أو التوصل للدين القيّم ومن هنا قالوا:" وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ".(الأنفال:٣٢)

ثانياً: إنهم قد رأوا أن أسباب دعوة محمدٍ(ص) إما طلب: المال، أو الشرف، أو الملك .
أو أن يكونوا قد ظلموا الرجل وإن ما يأتيه رئي لا يستطيع دفعه، عنه، فسيلتمسون له الطب، وإن كان ما يأتيه الباءة أي الرغبة الجنسية فإن الحل أيسر فليختر عشرا من بنات قريش الحسناوات ويزوجوهن له؛ ليزول الكبت الجنسي عنه، ويصير رجلاً طبيعياً مثلهم. (وهذا تفكير به بعض الرجاحة العلمية ،فالكبت الجنسي في بعض الأقوال قد يصيب أو يدفع إلى الجنون بمعنى الاضطراب العقلي خاصة في بيئة حارة كمكة)

ثالثاً: يستنتج من ثانياً أنهم كانوا يرونه مثلهم في مرحلة ما قبل الدعوة، وهذا غير صحيح، فقد مرّ بنا منذ قليل أنه كان عازفاً عن ملاهيهم ودار ندوتهم، ولم يكن معدوداً من وجهائهم أو من متدينيهم على طبيعة تدينهم، ومن ثمّ فهم لم يفقهوا حقيقة أمر الرجل، وإنما هو جاء بما لا يستطيع دفعه عنه، وسيأتي في الفصل القادم الحديث عن الصرع الذي أُلصق به في بدء الدعوة عند فتور الوحي فترة بسيطة.

رابعاً: أنهم رأوا أن هناك طرقاً للمساومة الدنيوية، وقد يكون هذا حقيقيًا ويجدي نفعاً لو أنه كان من طلاب الدنيا، والرجل قد ذاق حلاوة العيش في بيت خديجة وأموالها التي قيل فيها القول الكثير.

خامساً: حكى القرآن مطالباتهم له بالإتيان بمعجزات([1])، ثم أعلنوها صريحة فهم لن يؤمنوا ولو جاء بهذه المعجزات قال الله فيما حكاه عنهم:" وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَر

١- انظر تلك الآيات القرآنية(البقرة:١١٨) (الأنعام :١٢٤/١٠٩/٣٧/٣٥/٤) (يونس:٩٧/٢٠) (الرعد:٣٨/٢٧/٧)(طه:١٣٣)(الأنبياء:٥) (الشعراء: ٤)(الروم: ٥٨) (يس:٤٦) (الصافات: ١٤) (غافر: ٧٨) (الزخرف: ٤٨) وقد حكى القرآن عن مجئ عشرات الآيات في مختلف سوره، ونرى أن أغلب تلك السور مكية ، حيث التكذيب،والرغبة في إمعان الكفر، وعدم التصديق، ولو أتتهم الآيات لكفروا بها كما حكى القرآن:" وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَّعُلُوًّا فَانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ (النمل:١٤) وسورة النمل من المكيات.

النَّاسِ إِلا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَرًا رَسُولا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولا "(الإسراء:٨٩-٩٤)

سادساً: تعدد التهم تؤكد عدم صدق المتهِم للمتهم، فلا يستقيم أن يكون رجل واحد: ساحراً، وشاعراً، وكاهناً، ومجنوناً.

أرى أن الجنون مسألة نسبية، فما كان بالأمس جنوناً أصبح اليوم فناً وإبداعاً، وما هو اليوم جنون لا ندري ماذا يصبح غداً، أشياء كان من فعلها بالأمس انهالت عليه الألقاب والمدائح، وإن فعلها اليوم فهو مجنون!

الجنون مسألة نسبية في أي مجتمع، يصفون بها من خرج على طريقتهم، أو من يتصرف بطريقة تخالف المجتمع بشكل شاذ.

فالساحر لا يكون مجنوناً، ولا الكاهن مجنون، ولا الشاعر مجنون إلا في خيال الشعراء، وهم – عندي- قد زعموا أن الشعراء يعتريهم الجن؛ لأنهم يقولون قولاً لا يقوله غيرهم فينسبونه إلى الجن حتى يدفعوا عن الشعراء إمكان أن يأتي غيرهم بمثل هذا الشعر وخاصة أصحاب المعلقات الكبرى ،التي علقوها على أستار الكعبة وحفظتها العرب وروتها في الندورات والأسواق والأمسيات، وإن يكن القول بالجنون يعني أن هناك جناً يصحبه ويُعلِّمه القول الذي يذيعه عليهم، ولا يعتقدون في أن عنده صرع أو خلل عقلي واضطراب، فإني أرى أن هذا هو الأرجح .

فالعرب وإن كانوا قد نَفَسوا على الرسول أن يكون المبعوث من عند الله تعالى وسألوه الآيات انظر(الأنعام: ٨، يونس: ٢٠، هود : ١٢، الرعد:٧/ ٢٧، الفرقان: ٢١/٧، العنكبوت: ٥٠) وهم قالوا ذلك على سبيل التعريض به والاستهزاء من شخصه الضعيف إزاءهم، فقد قاسوا الأمور بمقاييسهم التي يعرفونها، فهم يعرفون الزعامة لأصحاب المال، والجاه والولد الأكثر قوة وعددا، والحسيب النسيب شريطة أن يدعم النسبَ مالٌ أو شيءٌ مما سبق التنويه إليه.

obeikandl.com

سابعاً: في المرحلة الأولى من الدعوة التي كانوا يطالبونه بهذا كله ويقولون عنه تلك الأوصاف رأوا أنه جاءهم وحدهم ، فكانت الآيات تقول:" وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ"(الشعراء:٢١٤) ثم قوله تعالى:" وهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ" (الأنعام: ٩٢) وكذا قريب من المعنى في قوله تعالى:" وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومَن حَوْلَهَا وتُنْذِرَ يَومَ الجَمْعِ لا رَيْبِ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ". (الشورى:٧)

وقد قيل إن محمداً لما صادف نجاحاً في يثرب أغراه ذلك بالعودة إلى مكة وفتحها، ثم لما فتح مكة أغراه ذلك بغزو هوازن وثقيف، ثم بقية القبائل من حوله حتى هاجم تخوم دولة بني الأصفر، وهو تطلع لم يكن قتلى بدر يظنونه يحققه ولو في الأحلام.

وأحب أن أسوق تلك الرواية للإجابة على بعض الأسئلة العالقة في الأذهان:"وفد ضماد الأزدي بمكة وتأثر بدعاوى المشركين عن رسول الله(ص) حتى استقر في نفسه أنه مصاب بالجنون، كما يتهمه بذلك زعماء مكة، وكان ضماد من أزد شنوءة، وكان يعالِج من الجنون، فلما سمع سفهاء مكة يقولون إن محمدًا (ص) مجنون: فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي.

قال: فلقيه، فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء. فهل لك؟ فقال رسول الله(ص) :" إن الحمد لله ،نحمده ونستعينه، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد"
قال: فقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله(ص) ثلاث مرات، قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس(قعر) البحر، فقال لرسول الله(ص) : " هات يدك أبايعك على الإسلام" قال: فبايع، فقال رسول الله (ص): " وعلى قومك؟" قال: وعلى قومي."([١])

ثامناً: نقول بضمير مطمئن إن النبوة والموهبة وشفافية الحدس تعد ضروباً متفاوتة من الجنون.
تأتي النبوة في أعلاها ثم الموهبة ثم شفافية الحدس، وهناك دراسات عديدة أجريت في مجال علم النفس حول العبقرية والمواهب المتنوعة([٢]). ولما كانت النبوة عبارة عن توحد مع الإله الخالق

١- د. محمد علي الصلابي ، السيرة النبوية، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، صـ ١٣١.ولم يقل له ضماد سمعت قول المجانين ؛ إذ ليس للمجنون قولاً يميزه عن بقية الناس ، أما الشعراء فلهم بحور الشعر والكهان لهم سجعهم المعروف والسحرة لهم تعاويذ يعرفها ضماد ، أما الجنون فليس له تعبيرات محددة، ولا وصف متفق عليه، بل خبرة المعالِج هي التي تكشفه، ونفهم من قول ضماد نفيه التام عن الرسول – من خلال قوله وهيئته- صفة الجنون عنه وهي التي كان يظنها ملتصقة به كما أفهمته قريش.
٢- انظر على سبيل المثال: العبقرية والإبداع والقيادة ، تأليف دين كيث سايمنتن ، ترجمة :د. شاكر عبد الحميد ، عالم المعرفة ،الكويت ،١٩٩٣م.

obeikandi.com

لصالح البشر، فوظيفة النبي إخراج قومه من حال سيئة إلى حال أفضل، وهذا التوحد البشري – مع الإلهي – يُعدُ في ذاته جنوناً؛ إذ إن الذوبان في الآخر شفافية غير طبيعية، فما بالنا لو كان في غير المدرك؟

لذا فالخروج عن نطاق العقل البشري – الطبيعي – يعتبر خرقاً للقدرات البشرية، فيتم تصنيف هذا في إطار الجنون، باعتبار أنه لا يمكن الاعتراف بما يخالف المألوف الإنساني، وإذا حدث فوقية لهذا يتم سحبه على الجنون، ويمكن أن نؤكد أن الخروج عن المألوف الإنساني في سفر آخر بعنوان في مديح الجنون.

الجنون في الدرس الحديث:

هكذا رأينا أن حديث القرآن عن الجنون المُلصق للنبي محمد(ص) إنما جاء على سبيل تسجيل مراحل الدعوة الدينية، وأنها تهمة غير واعية ولا مقصودة، ولم يهتم القرآن بما قالوه؛ لأنه عند عرضه على الفطرة المستقيمة والعقل الراجح لن تقف تلك الاتهامات موقفا صامدا، بل تتهاوى، فالحق إنهم كانوا حيارى، ماذا يفعلون وماذا يقولون؟

وقد مرّ أنهم بحثوا عن أمر يذيعونه بين القبائل التي تفد للحج؛ حتى يصدوهم عن الاستماع إليه والتصديق له، وسيأتي سبب صدهم عن دعوته في الفصل القادم، فقد كانت المسألة شبيهة بالحرب الإعلامية بين طرفي نزاع، فريق يدعو إلى الحق والخير والإيمان وآخر يرفض التجديد ويصر على القديم وإن خالطته رواسب الجهل والتعفن والقذى، والضياع في الحياة الآخرة، ولم يصدقوا بوجود آخرة وحساب وعقاب وغير ذلك وقالوا: "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِن عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ "(الجاثية :٢٤) وقد أكد الوحي أنه سيحدث بعث وحساب، يقول القرآن:" إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ "(الأنعام:٣٦)

وقضية الحساب والبعث والعقاب والثواب كمبدأ قد ناقشته السور المكية فقط، ولما هاجر الرسول ورفاقه إلى المدينة تحدث القرآن كثيرا عن الحساب والعذاب والنعيم سواء للأمم السابقة (كاليهود

والنصارى) أو للعرب من المسلمين أو من المشركين أو المنافقين وغيرهم، لكن المبدأ ذاته كان قد تأسس في المرحلة المكية[1] .

ودعوة محمد لم تكن مجرد القول بدين جديد، فالدين لم يكن جديداً بحال من الأحوال على الأديان السابقة ولكن الجديد هو صدامه لهم في آبائهم ودنياهم وآخراهم، أي في الماضي التليد والحاضر المشرق والمستقبل الغامض، مما حدا بهم إلى إطلاق وصف المجنون عليه بسبب أنهم اندهشوا ليقينه الذي يتحدث به، وعلومه التي يأتي بها من غير معلم أو لم يسبقه بها أحد، حتى القصص بها غير ما عند رستم واسفنديار وغيرهما .

بقي أن ننظر معنى الجنون في الدرس الحديث والمعاصر، فقد انشغل أحد فلاسفة فرنسا في القرن العشرين وهو (بول ميشال فوكو ١٩٢٦-١٩٨٤)[2] بقضية الجنون انشغالاً تاماً وكتب فيها كتباً كثيرة اشتهرت وانتشرت في العالم بأسره وخاصة كتابه (الجنون والحضارة) وبالطبع لن نسير وراء تحليلات فوكو عن الجنون بوصفه ظاهرة أو مرضاً – مع أهمية ذلك – فهذا بعيد عن مجال دراستنا الآنية، ففوكو بحث المرض في ضوء ظروف أوروبا خلال عصري النهضة والتنوير، وفق ظروف بيئية محددة، واشتراطات ثقافية مغايرة لما نحن بصدده، والمشهور أن الجنون هو: هو التغيرات العقلية التي تطرأ على بعض الناس فتخرجهم عن دائرة العقل وهو أقسام: منها الماليخوليا وهي التي كانت معروفة بالسوداء أول درجات الجنون، وأعراضها: دوام الاكتئاب وشدة الاهتمام بالنفس، وزعم الإنسان بأنه مصاب بجملة أمراض قاتلة، ومنها المونومانيا أي الجنون بشيء واحد وهي حالة يجن فيها الإنسان

١- انظر: (الأنعام:٦٠/٣٦، الأعراف:١٤، الحجر: ٣٦، النحل:٨٤/٣٨، مريم:٣٣/١٥، الحج:٥، المؤمنون : ١٠٠/١٦، الشعراء: ٨٧، النمل:٦٥، الروم:٥٦، يس:٥٢، ص:٧٩، المجادلة:١٨/٦، التغابن:٧) وقد ورد الحديث عن يوم القيامة (بلفظة يوم القيامة) في القرآن الكريم ٦٩ مرة تنبيها للناس على الحساب ووجوب الثواب والعقاب. وتناثرت في جميع آي القرآن الكريم مكيه ومدنيه.وورد لفظ البعث مرتين(الحج:٥، الروم:٥٦) ولفظة يوم الحساب وردت أربع مرات(ص:٥٣/٢٦/١٦، غافر:٢٧) ولفظة القارعة أربع مرات (الحاقة :٤، والقارعة:٣/٢/١) والحاقة ثلاث مرات (الحاقة :٣/٢/١) كل هذا يؤكد الحرص القرآني الشديد على يوم البعث والحساب في الآخرة وهو ما لم يؤمن به العرب المشركون بل هابوه وخافوه ، وصدوا عن الدين واعتقدوا أنهم بصدهم عن الدين وكفرهم بما جاء به محمد سيغلقون هذا الباب تماما وإلا فجهنم التي ينذرهم بها ستأتيهم ، ونلحظ أن القرآن تحدث أولاً عن الإنذار ولم يتحدث عن البشارة ، فقال الله تعالى :" وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ "(الشعراء:٢١٤) (البقرة:٦، الأنعام :٥١/١٩، يونس:٢، إبراهيم:٤٤، النحل:٢، الكهف:٥٦،مريم: ٣٩، الأنبياء:٤٥، الشعراء:٢١٤، يس:١٠/٦،غافر:١٨، فصلت:١٣، الأحقاف:٢١/٣، القمر:٣٦، نوح:١، المدثر:٢، النبأ:٤٠، الليل:١٤) وأغلب تلك السور مكية وبعض آيات الإنذار جاءت حكاية عن الرسل السابقين مع أقوامهم مثل(الأحقاف:٢١، القمر:٣٦، نوح:١) وجاء الحديث عن البشرى أقل من الحديث عن النذير ، فقد وردت لفظة بشير في ثمانية مواضع هي(البقرة:١١٩،المائدة:١٩، الأعراف:١٨٨، هود:٢، سبأ:٢٨، فاطر:٢٤، فصلت:٤) أما لفظ نذير فقد ورد(٤١ مرة) ما يوحي بأن الإنذار كان أشمل من التبشير ،وهو ما أرهق كاهلهم ولم يصدقوه ، فقد كانوا في الدنيا سادة فكيف يكون هناك في الآخرة المزعومة عذاب وسعير؟ وقد حكى القرآن مثيل ذلك في الكهف حيث لم يظن صاحب الجنة أن مصيره سيكون النار بل الجنة إن كان هناك يوم الساعة يقول القرآن:" وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا "(الكهف:٣٤-٣٥) وهذا هو حال قريش، وكان السبيل الوحيد للنجاة من هذا السعير بالنسبة لقريش هو ترك ما هم فيه والعودة إلى طريق الصلاح الذي حادوا عنه، ولا يعرفونه منذ فترة بعيدة، وأكد لهم أن آباءهم في النار لجهلم بالله ولكفرهم به (البقرة:١٧٠، المائدة:١٠٤، هود:١٠٩، يس:٦، الكهف:٥، المؤمنون:٦٨،الفرقان:١٨،الصافات:٦٩، الزخرف:٢٩) ما صدهم عنه صدودا .أما الآيات التي فيها التخيير وهكذا يبدو ظاهرها فحسب، مثل:" لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (البقرة:٢٥٦) وقوله تعالى:" وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا "(الكهف/ ٢٩) فهناك آيات أخرى تناقضها وهي التي قيلت لمشركي قريش، من أمثال:" وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ* بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ" (الزمر:٦٥/ ٦٦) ثم جاء في سورة مدنية متأخرة قوله تعالى :" قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (التوبة:٢٩) أرأيت إذاً أن الأمر لم يكن سهلاً، ولم تكن دعوة محمد(ص) مجرد صيحة في البرية ، بل كانت دعوة بها تتحول وتتغير المفاهيم كلها والأمر لا يقتصر على مرحلة زمنية بل يمتد إلا إلى الأبد وما بعده ؟ لكل هذا كانوا يصفونه بالمجنون ربما ليس مجرد انزعاجا أكثر منه دهشة واستغرابا.

٢- المفكر والفيلسوف ميشيل فوكو فرنسي الجنسية ،حصر نفسه في دراسة الجنون والجنس ، ودرس الجنون في كتابه الجنون والحضارة ، وفي غيره من البحوث ،وزعم في كتبه أن العقلانية الكلاسيكية – في القرنين السابع عشر والثامن عشر – ما كان لها أن توجد ،وأن تمكن لنفسها عند ديكارت مثلا إلا من خلال نفيها للجنون ،وحبسه في المصحات العقلية ،ومن هنا فقد استبعدت هذه العقلانية العلوم الإنسانية من مجال دراستها ، فتأخر ظهور علوم مثل: علم النفس ، وعلم الاجتماع، والاقتصاد ، والانثروبولوجيا ، ولم تظهر إلا منذ وقت قريب – في القرن العشرين – بعد أن انزاحت الكلاسيكية تماماً.وأسهمت دراساته في إلقاء الضوء على تجارب الجنون والإجرام ،والممارسات الاجتماعية الوحشية في السجون ، والاعتراف والانضباط، كما جلبت له إسهاماته في الطب النفسي والطب السريري ، وأنشطته السياسية – شهرة عريضة حتى دُعي إلى إلقاء المحاضرات في أماكن متعددة.راجع: كريس هوروكس :أقدم لك: فوكو ، ترجمة د.إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٢، صـ ٥. من مقدمة المترجم.

بشيء أو أشياء محدودة ويتعقل ما عدا ذلك، وذلك كالكبر والعُجب(كما جاء في أحاديث النبي – ص-) وحب القتل والوسوسة، ومنها ألمانيا وهي أن يجن الشخص جنوناً عاماً مع هياج شديد ومنها الذهول، وهي أن تضعف قوى الإنسان العقلية ضعفاً تدريجياً، ومنها البله وهي حالة طبيعية لا مكتسبة منشأها عدم تكامل خلقة المخ من صغر الرأس أو غيرها، وأكثر من هم هكذا يكونون بكماً أو غير تامي الكلام.

أقوى أسباب الجنون انقماع النفس عن مطلوبها بسلطة قاهرة، والغيظ البالغ حده النهائي والفزع الفجائي والغيرة والوسوسة والعشق، وفقد ما لا يمكن استرداده مما يكون عزيزاً على النفس جداً. وأكثر المصابين به النساء لشدة إحساسهن. ومن أسبابه الضرب على الرأس والسقوط عليه ومرض الأذن والمرض الشديد وشرب الأشربة المخدرة وارتداد العرق فجأة واحتباس الحيض والرعاف وقد يكون وراثياً.

كل هذه الأسباب ليست ملزمة بحدوث الجنون؛ فقد توجد تلك الأسباب ولا يقع الجنون فلم تجن هند بنت عتبة رغم مقتل أبيها وأخيها وعمها في بدر، وإنما تكون تلك الاشتراطات قوية الفاعلية عند من لديه الاستعداد للإستجابة للمرض بدرجاته السالفة الذكر.

ويمكن للطب الحديث معالجة هذا الداء ويكون العلاج على حسب درجاته ففي الماليخوليا تكفي الرياضة والسفر وسماع الأنغام، وتطلب السرور مع الحماية والراحة والاعتناء الشديد بالمعدة. وفي الجنون الخاص بشيء واحد يجتهد بإبعاد فكر المريض عن ذلك الشيء وترويضه وتفريحه. وإن كان سببه مرضاً من الأمراض وجب معالجة ذلك المرض. أما الذهول فلا يشفى منه إلا أفراد قلائل لأنه يعقبه شلل عام فيموت المصاب. أما الجنون العام فيعالج بعلاج مادي وأدبي أما المادي فهو علاج لإبطاء الدورة الدموية، ولكنه لا يستعمل إلا إذا كان الجهاز الهضمي سليماً، وسكب الماء على الرأس والاستحمام بالماء الفاتر ووضع منفطة على الصدر وغير ذلك. وأما الوسائط الأدبية فهي أشد فعلاً من كل ما ذُكِر وهي:

أولاً: أن لا تهيج شهوة المجنون.
ثانياً: أن لا يخالف ولا يؤاخذ ولا يُستهزأ به.
ثالثاً: أن يجتهد في إثبات رأيه فيما هو خارج عن الجنون.

obeikandl.com

معنى عدم تهيج شهوات المجانين هي أن يُبعدوا عما يثير جنونهم أو عما سبّبه، فإن كان سببه العشق وجب أن لا يذكر ما يهيجه. وإن كان سببه الوسوسة بشيء وجب إبعاده عنه. وإن كان سببه ظنهم أنهم ملوك أو علماء فينبغي أن لا يوقروا لأن توقيرهم يزيد جنونهم ويجب أن لا يترك المجانين بنوع واحد في محل مشترك لأن بعضهم يثير جنون بعض.

كلما يزداد ذكاء الشخص يتضح له أن قوانين الحياة تزيد ضيق حدود تفكيره..
عندما يفكر الشخص خارج صندوق التفكير يخرج من تلك الحدود.. ويدخل في حدود الجنون؛ لهذا يجب على كل فيلسوف أن يكون مجنوناً ليصبح فيلسوفاً.. وأيضاً أي شخص عمله يتطلب حرية فكر .(١)

وأسوق بعضاً من الأفكار التي تناولها فوكو في كتابه تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، حيث يؤكد ما يأتي:" توجب علينا خلخلة الأوهام الشائعة حول العقل والجنون، والتي قررت بأن الجنون صورة عن العالم الآخر، يقع في جهة، والعقل في جهة أخرى مختلفة تماماً، ولا اختلاط بينهما، مع أن كل إنسان عاقل فيه حبّة جنون، صغرت أو كبرت. وكشف فوكو أن كل شكل من أشكال الجنون له موقعه وشاراته وإلهه الحامي، وأن نظرة الناس إلى الجنون في القرون الوسطى كانت مختلفة عن العصر الكلاسيكي وعن نظرتنا في العصر الراهن إليه. وكان كل عصر يشكل تصوره عن هذه الظاهرة التي ترعب عالم "العقلاء"، لذا كان الهمّ منصباً على التحكم في الجنون. ولم يمنع التحكم الجنون من الاحتفاظ بكل مظاهر سيادته، حتى بات جزءاً من إجراءات العقل والعمل والحقيقة، يمارس نشاطه في الوجه الشفاف للأشياء وفي تقلبات النهار، في الظاهر وفي غموض الواقعي والوهمي، في تلك اللحمة غير المحددة والمستعادة دائماً والمنبوذة دائماً أيضاً. إنه يفصل الحقيقة عن الظاهر ويوحدهما كذلك. إنه يخفي ويكشف، ينطق الحقيقة ويكذب، فهو ظل ونور. إنه يغري، بوصفه الصورة المركزية والمتسامحة، صورة كانت هشة ومازالت لهذا العصر العسير"(٢).

١- هذه المعلومات مستفادة من رسالة الدكتور: أحمد العنزي الذي ناقش (فلسفة الجنون) لدى ميشيل فوكو في رسالته للدكتوراة، وعرض ملخصاً لأهم ما جاء فيها كما ذكرت في مجلة الكويت ، نوفمبر ، ٢٠١٠م.و في هذا الصدد اقرأ لميشيل فوكو : تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة :سعيد بنكراد،المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦م.

٢- فوكو : تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦، صـ٦، من مقدمة المترجم. لا يفوت فوكو تناول ممارسات السحر والشعوذة والطقوس الاستئناسية؛لأن عمله يطاول أيضاً العوالم الرمزية وكل الصور المخيالية التي أنتجتها المخيلة الإنسانية؛ بغية تحديد ورسم حدود عالم الجنون، المليء بالصور والاستيهامات، والمليء أيضا بأشكال النبذ والإقصاء وسفن الحمقى. إذ يتحدد كل شيء ضمن هذه العوالم، من خلال التقابل الذي لا يُرى بين "حقيقة الجنون الموضوعية "، التي ستعرف طريقها إلى مستشفى الأمراض العقلية، وبين العوالم الثقافية والسياسية والإيديولوجية والأخلاقية كذلك، التي تستثيرها شخصية المجنون. وهي عوالم تسللت إلى كافة أشكال التعبير الإنساني: الأدب والفن والفلسفة، وكذلك مجمل التصورات التي يعيش فيها المجنون داخل اللغة وداخل خطاطات السلوك الاجتماعي وعوالم التقديس والتدنيس على حد سواء.

كذلك يتوقف فوكو طويلاً أمام جنون الفلاسفة والشعراء والأدباء والفنانين، أمثال هولدرلين، ونيتشه، وآرتو، وجيرار دونيرفال، وغويا، وساد، إلخ. وهو جنون يحق له أن يحاكم العقل الغربي المتغطرس وليس العكس، إذ لا يوجد أي عقل في العالم يستطيع أن يرتفع إلى مستوى جنون فريديريك نيتشه أو الشاعر الكبير هولدرلين. ولا يجد فوكو غير الثناء على هذا الجنون والتحدث عنه بحميمية وشاعرية، فهؤلاء المجانين الكبار قدموا روائع خالدة للثقافة الإنسانية.وأن جنونهم جاء معبراً عنهم في أعمالهم .

obeikandl.com

ويرى البعض في العصر الراهن أن الجنون أصبح فشلاً اجتماعياً أكثر منه سقوطاً، وكانت الصحة العقلية تعكس نظام السلطة البرجوازية.

أصبح للشخص المجنون الآن صفة خاصة هي المريض، ويخضع لرعاية عقلية وعلاج.

وقد يرى البعض أن الجنون ليس سوى نتيجة اغتراب: اغتراب الإنسان عن نفسه وعن التاريخ؛ بسبب الظروف المادية التي لا يمكن حلها، فليس لأن الإنسان مريض فهو مغترب، بل لأن الإنسان مغترب فهو مريض.

ومن خلال كل ما سبق يمكننا التأكيد على الآتي:

أولاً: الجنون في الوحي القرآني ليس شبهة على من ألصق بهم وهم(نوح –موسى –محمد) بل هو تأكيد على خروج الأنبياء على ثقافات عصورهم والمجابهة بجديد أفسد الواقع على ما كان عليه.

ثانياً: لم يتحدث القرآن عن الجنون عند بقية الرسل كما تحدث فيه عند محمدٍ(ص)؛ لاعتبارات كثيرة أهمها أنهم اندهشوا أكثر مما كذّبوا، وكان مثار اندهاشهم علمه الكبير وخروجه من وسط مادي فقير، والحديث اليقيني عن الماضي والحاضر والمستقبل، وعدم رغبته بدعوته شيئاً مما لديهم ويمكنهم رشوته به.

ثالثاً: كان الجنون في السابق يعبر عن صحبة أحد الجن لبعض الشعراء ليعلمه الشعر، ويقوله على لسان الشاعر، ولذا كان هذا التفكير الفلكلوري العربي سبب قولهم إن به لجنة في الكثير من الأحيان، ويقول القرآن في مواضع أخرى إن الشياطين توحي إلى الشعراء، وأنهم يخطئون الطريق الصحيح (الشعراء:٢٢٤) وهم مجانين ولا يسرهم النظرة السامية، وأن العرب تخلوا بسبب الشعراء عن دينهم المتوارث(الصافات:٣٦) .

رابعاً: لم تشكك العرب (كلها) في عقل ورجاحة النبي محمد(ص) لحظة واحدة، بل تعاملوا معه من خلال معطيات المواقف ونظروا للأمر في البداية نظرة سياسية واقتصادية وثقافية، ثم عرقية إثنية وهذا القول مدعاة لخروج عبد العزي بن عبد المطلب(أبو لهب) في صف المناوئين لمحمد لا المؤمنين به وهو عمه (غير الشقيق لأن أم عبد العزي (أبو لهب)هي: لُبنى بنت هاجر بن عبد مناف، وأم عبد الله والد محمد(ص) هي: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ...الخ)(ابن هشام: جـ١،صـ٦٠)

خامساً: شغل موضوع الجنون العلماء والفلاسفة والمفكرين طويلاً عبر العصور الحديثة، وتفرغ بعض الفلاسفة الغربيين (فوكو) في بحث هذه الظاهرة، وإن قصر دراساته على الغرب الأوروبي فقط، ولكن لعل النتائج تشمل الجميع وكان التعامل مع المجنون في السابق يكون إما بحبسه أو قتله، فأصبح اليوم يُعالج في المستشفيات وتوضع له أنظمة علاجية تؤتي الثمار اليانعة في الكثير من الأحوال.

سادساً: توقف البعض عند مظاهر الاضطرابات العقلية عند بعض مشاهير الفلاسفة والأدباء والشعراء والموسيقيين، وغيرهم، وقيل إنهم أبدعوا كل هذا وهم مجانين تقريباً، وأود أن أنبه إلى أنهم أبدعوا ما أبدعوا رغم ما يعانون من اضطرابات عقلية قد تحجم غيرهم عن المشاركة الفعالة في المسيرة الثقافية العالمية، لذا خلدهم التاريخ في صحفه وموسوعاته.

سابعاً: لا يزال القرآن الموحى به إلى النبي يُتعبد بتلاوته لليوم، وفيه تلك الآيات لنعتبر بها، فليس كل مصلح أو مجدد – يسير سير النبي ،لا رغبة لديه في السلطة أو المال أو الجاه والسلطان – يُحكم عليه بالجنون، وأنه ينبغي من تنقية الموروث الثقافي كل فترة وألا نقف عند حدود الجمود والغفلة التي تستدعي الانحطاط الفكري والخروج من مسيرة الركب الحضاري، ونقبع في ركن المستهلكين لإنتاج الآخرين – كما هو حاصل في عالمنا اليوم بدرجات متغايرة.

ثامناً: أردت بهذا الفصل التأكيد على سلامة وقوة العقول المتأخرة، التي توجه سهاماً لنقد القدامى والمؤسسين لحركات وتيارات فكرية، وأنه لا ينبغي الوقوف عند التمجيد والتعظيم، وأزيح من طريقي – في قادم الكتب- كل التقديس لغير الموحَى إليهم وإن حققوا ما حققوا من نجاحات، والبحث عن النوايا لا يشمل الأفراد العاديين، وإنما يجب أن يحدث مع من يزعمون الإصلاح، وإعادة نشر الإسلام بسبل جديدة لا يرون فيها إلا أن يحكموا ويتحكموا، ثم ساعتها يجعلوه وراءهم ظهرياً.

تاسعاً: أريد التوقف عند مجابهة ذوي السلطان ومواجهة السلطة للخارجين عليها، وإلصاق تهم الجنون على الفور لكل مخالف ليسهل التصدي له وعزله عن المجتمع، تمهيدا لتصفيته جسديا. والتأكيد أن التهمة البديلة للجنون اليوم هي الكفر، وقد صارت مستهلكة حتى كادت تفقد سمعتها الشريرة وتصير تهمة للتزكية لا للحطِّ من قدر من يوصف بها.